دار التميز الثقافية النشر الالكتروني

ممزوج بالعِبَر

تأليف:

شُهب من نجم حيناذ

ممزوج بالعبر

تأليف: شهب من نجم حيناذ

اسم العمل :ممزوج بالعبر

تأليف: شهب من نجم حيناذ

التصنيف:خواطر

تصميم الغلاف : عوض الكريم حسين

موك اب: هديل أبو جاموس

تنسيق داخلي:هديل ابوجاموس

السنة: 2024

الصفحة:31

كلمات:7046

ناشر:دار التميز الثقافية النشر الالكتروني

فلسفة الحياة تعلمنا أن اللذة ليست في الوصول بقدر ما هي في شق الطريق

مقدمة

تستقر الأحلام في النفوس قناديلًا تستمدُ ضياءها من خيط العزيمة المشتعل داخلها.

مر طيفٌ واثق الخطى، مجهول الهوية، مليءٌ بالطموح، ترقصُ الأمنيات على صدى وقع أقدامه، ثُم أطلق الرياح لشراع الأمل وأمواج الازدهار، فتراءت السماءُ بستانًا تُحفه الأنوار الفضية.

هُناك في قلبِ تلك الليلة الباردة، وما إن لاح البدر ببطءٍ في سماءٍ سوداء محاطة بسُحبٍ رقيقةٍ تسربت من بين حنايا الليل القاتم حتى لمعت نجمات؛ تحاورن يحكين قِصَصَ طُلابٍ حالمين، تحورت أحلامهم لأهداف، وساقتهم خطاهم من دروبٍ مختلفة؛ ليلتقوا في قطار المشقة المتجه إلى أرض الإبداع والأحلام اللامتناهية، هناك حيث كل شيء مُمكن وكل حلم مُتاح..

"المُبتغى يحتاجُ لثمن فيا تُرى ماذا دَفع كُلٌ مِن هؤلاء الطلاب ثمنًا لتذكرةِ ذاك القِطار؟"

تساقطت هذه اللآلئ مِن حَنجرة نَجمة كانت تُلقي بسمعها عند مَجلِس الخمس سُهيلات، فأثارَ حِوارَهُن التساؤول في فِكرها،

فأخذت بنفسها إليهن عندما هَزمها الفُضول، وما إن وصلت إليهن حتى شَعَّ نورها في المَجلِس، واكتَملت بذلك الهالة النجمية؛ انبثقت مِنها أشعة ظنها سُكانُ الأرض ظاهِرة كونية غير اعتيادي، لكِن لا لوم عليهم؛ فمَن في الأرض يجهلُ ما في السماء، وكُلٌ مِنا يجهلُ ألم صاحبه، خاطبت:

-هل لي مِن قِصص أصحاب الدورب نصيب؟

وفي دلالة الرِضى فأخذن يتجادلن من فيهن ستبدأ أولًا.

قالت أصغرهُن:

لنبدأ من صغير القوم؛ فالصِغار لا يحتملون الانتظار.

عارضتها أخرى:

بل كبيرُهم أولى؛ الكِبارُ أولًا.

فجاء بصوتٍ من الزواية:

خيرُ الأعمال أوسطها لنبدأ بالوسط.

قالت "الثُريا" وقد اعتادوا أن تتساقط الدرر من فمها:

ليس المُهم من ستبدأ أولًا أو آخِرًا؛ من يُجاهد ويسعى سيَصِل لمُرادِه، وأنا سأُباشِر بالرواية:

كُنت أقول دائمًا بيني وبين نفسي عندما أتجسس على أحاديث أهل الأرض بأن هذا خداع، لكنها كانت تأتيني كأطيافٍ تؤنسني بينما أنتن في غفلةٍ عن أمري ولا إثم عليَّ، أذنايّ مفتوحة دائمًا لتلتهم أقوال البشر ثم تخرجها حكمًا وعِبر وقتما تشعر بأن أحدًا احتاجها، أو كلما ثَقُلت على نفسي كأسرارٍ فاحت مِن بئرها، وأظنه الوقت المناسب؛ فلتستمعي يا جلسية معشرنا، فلتتخيري من هذه القصص أشجاها للفؤادِ وأعظمها أثرًا في النفس:

فلسفة الحياة في معاكسة المتوقع، وإصرارها على تفشيل الخطط وخذلان الطموح، وفي اغلاقها لأبواب وفتحها لأبواب أُخرى- تصنع منّا إنسان آخر غير الذي كنا نصبو إليه، شخص أقوى في العزيمة وأشرس في الوصول إلى الأهداف.

في بلادٍ بعيدةٍ عن أنظار العالم، تتخللها قطرات المطر وأجراسُ الليل الموحشة ودُخان نفثته البراكين.

ولدت صغيرتي التي بها على مراسيل ضوئي خطت خطواتها المترنحة إلى أن قوى عودها، وثبتت مبادئها وارتسمت عليها سمات الحَجر عِند المحن.

تختطِفُ فكرِي زهولًا باختلافِها؛ فالجوهرُ رقة وفارِسٌ يمطتي فرسًا عِند الشدة، تجِدُ آفاقًا واسعة إن فتحت أحد نوافِذ أو أبوابِ عقلها.

أرادت صغيرتي أن تنال مرادها قسرًا للظروف، وعنوةً من الحياة، فسلكت الطُرق يؤنسها البؤس، لكن للحياة رأي أخر، فمن الطبيعي لبلدٍ تعتمد في حياتها اليومية على المنتجات الطبيعة أن تكون اليد العليا للرجال، وأن يكون المكان الطبيعي للأنثى فيه هو المطبخ، فهذا أسلوب حياتهم ورثوه من أجدادهم، ولكن صغيرتي آمنت أن الأحلام تتحقق بتحقُق المستحيل، وآمنت بأن المستحيلَ سهلٌ حدَ التحقُق، لذلك من أسرتها المتسلطة تحررت، ومن بين أخوةٍ متنمرين نفذت، ولعادات مجتمعها رفضت، فخطت لنفسها طريق جديد يشوبه المجهول، واتخذت قرار المسير فيه لإثبات حقها في العيش؛ فهي ابنة الطُرق الطويلة والمسافات البعيدة، خُلقت يداها من تراب الوطن وقلبها قويٌ بقوته، ولكن بكامل الأسف، خانها الوطن وحل العقدة التي ربتطها بينها وبينه، وبذلك حالت بينهما الطرق رغم أن جميع أحلامها بُنيت تحت سماء الوطن، وعقدت عهدًا بينها وبين نفسها الشغُوفة أن الوطن سيكونُ ملجئها الأول والأخير دائمًا.

كبرت الفتاة وكبرت أحلامها، وكبر مقتها ورفضها للقيود، كانت تؤمن بقيدٍ واحد وهو مخافة ربها ونيل رضاه لكن دون ذلك لا وجود له عندها، هكذا كانت تخبرني في كل ليلة تزور الدموع عينيها، في كل يوم كانت تشعر فيه بكبتها، كانت تخبرني قصصًا لم يسمع بها أحدًا، أحلامًا فتية ترجو من الله أن تتحقق، كانت تنهار ليلًا وتسعى في صباح اليوم الثاني نحو النجاح بلا كلل أو فتور.

سطّرت قدرها بالمسطرة والأسلاك، كأنها على وعد مع العالم بأن المرأة قادرة على أن تغزو كل المجالات بنجاحاتها، فالهندسة كانت البرهان، وقبولها كان الوعد، وبنجاحها كان الوفاء به.

لكن الحياة كما علمتنا دائمًا تتشابك طرقها، وكحال الجميع اشتبك طريق صديقتي مع أحدهم، فدقّ القلب ومالت الأماني، وانسابت الأحلام في الليل الوردي؛ فزميل القلم خطف أنفاسها، وامتطى حصان أحلامها فارسًا محلقًا نحو مستقبل تعمه السعادة ويغمره الحب والحنان.

أخبرتي ذات ليلةٍ أنها ستنعم لما تصبو إليه، فالتعليم والحب اجتمعا وسينيران الدرب؛ لأجل ذلك اختفت ولم تزرني أخبارها قطعة من الزمان، ظننتها نالت، وفي النعيم أغدقت، وأن الحياة أنصفتها.

وفي مرةٍ وأنا نائمة جاءتني، تنهيداتها الكبوتة أيقظتني، وروحها المكسورة أسفتني؛ كانت شاحبة اللون مسلوبة الإرادة ومليئة بالقيود، لا تقوى على الكلام، سألتها حالها؟

ما عاد لها حال ليحكى، ولا قضية لتكسب.

نالت شهادتها بتفوق، وعلى أعتاب الحلم المهني سعت، وكانت مع الرفيق على العهد وإن فرقتهما الجغرافيا، لكنها دنيا دنية، ما عاد الرفيق رفيق، غدرها الزمن وذبلت الورود الفتية، تسير في درب صديء بقلب مكسور، وقدم على السير مجبور وبين أب يريد لابنته الستر، ومجتمع سعِر يهويه التأويل وكشف السر، رضيت هي بشريك لم تعرف عنه إلا اسمه.

شهادة دفعت ثمنها سنين من عمرها زينت بها حائط منزلها، ومبادئ بنتها طوبة تلو أخرى، هُدمت على رأسها اليابس الذي يكسر كل ليلة بضربة من يد زوجها الباطش.

_هل هذا هو مرادك

= لا.

_هل أنت ميتة الآن؟

=ما زال نفسي مُتَهَدِّجاً.

_إذن لك أيام في هذه الدنيا.

= هل سأنالها؟

_ فقط إن بدأت في محاربة الخطأ.

=سأحارب

_ أجل سنحارب.

نهضت وحسمت أمرها، وكانت "لا" الرفض هي همها، رفضت التسلط، العنف، الكبت، القيود، ...

رفضت الأخطاء وسارت نحو درب الحق، هي حياة واحدة سنحياها، فلنحياها والنفس راضية عنا، والرب راضٍ عن النفس.

من جديد، من قيد الاستسلام تحررت، ونحو النجاة سعت، نفضت غبار تعليمها الذي دفنت، واستبدلت أزهارها التي ماتت بأخرى تغرسها في طريقها الذي على خطى مسيره نوت.

سعت وعافرت واجتهدت، ولقدرتها العظيمة أثبتت ولأفق جديدة حلقت إلى آخر خطوة في حلم الوصول، لكنها لم تصل.

الأوطان تخون، حقيقة ومجازًا، فكل انتماء اتخذناه تخلى، وكل رفيق أمناه تولى، وكل الأشياء إن علمت بمسعانا إليها وناديناها أيا أحلامنا تعالي، فتتعالى ولا تتدلى.

الأوطان تخون، بعدّت الحبيب، وقرّبت الغريب، وبين قلب أتخذناه وطنًا، ووطنًا بات للقلب موضع وجع تبدّدت الأحلام، وأحاطتنا الأوهام، ولكن ما زال فيّ بضع مني يتنفس.

لذة انقشاع الغمام والتغلب عليه غمامةً تلوَ أخرى، تجعل للوصول معنى آخر أكثر عمقًا وأعظم ثمنًا.

باختلاف الشخصيات تختلف الزوايا والمشاكِل، فكُلٌ يرى مأزقه أكبر-قالها النجُم طارق ثم باشر حديثهُ-أتوق إلى صبيٍ كان عنوان حياته البهجة، ما بالي أراه اليوم يكسوه الضياع؟!

قد يبدو لكُنَّ الأمر عاديًّا بل مُزعجًا؛ ما الذي يجعلني أشغل بالي وأنصت لقصة شخص يعود مِنْ دوامه مُتضجرًا، محملًا بالخيبات التي ما إن يعود إلى منزله حتى يُخبئها بين طيّات أريكته ذات الأصفر المُتفائل مما يُصيبه بالإختناق؛ يُريد أن يُلطِّخها بسواد القنوط.

هذه قصة ملاك حولته الحياة إلى شيطانٍ رجيم، يعيشُ في قاع الجحيم، يتهادى في مخاض المعاناة تائهًا دون هدفٍ أو حلم، ساعات منسية وأيام تمرُّ مرور الكرام، تجَرَّع كأس الفقد بنشوةٍ، فهو ليس بفقد ذليل؛ خمدت شعلة الحياة في عينيه، وتهاوت عوالم الأُنس بداخله، قد هرم وأقرانه يتجولون في بساتين الشباب.

أنينه يطالعني في الأفق، وهمساته تتردد في أذني قائلًا:

أتعلمين يا صديقتي؟!

منذ صغري أصابني جمود جعلني أبدو كمتجمد الشمال، قبل تخبطي في غياهب التيه فقدت والدي، وقد كنت في المهد صبي، لا استطيع وصف تفاصيل وجهه بدقة ولم أسمع حتى صوته، جل ما أذكره أنني ترعرعت بدونه، لكن فقدانه ترك بداخلي ندبةً لن يُعالجها حنان أمةٍ كاملة، يومها علِمت أن لا شيء يستحق الحزن عليه، سهلٌ عليَّ أن يبتعد عني شخصٌ وهو على قيد الحياة، ولكن كيف الوصال لعزيز رحل؟!

ومنذ ذلك الوقت أصبح لا يعنيني أحد، فليرحل من رحل ويبقى من يُريد البقاء؛ شغفت بالوحدة، وعشقت اللامبالاة، احتضان الظلام يغمرني بالطمأنينة ومع ذلك يقبض أنفاسي، ونور الشمس يأذي فؤادي ويُنبت أزهاري، لنجعل كل أمر عين اليقين، عبثيُّ الشعور تُغنيه نفسه عن

كل مافي الكون، إتلاف التمَنِّي جزء أساسي لديّ، والتشاؤم موطني، يا عزيزي، لِما الأمل ولماذا وكل يومٍ أجدني اقترب زلفى من الإضمحلال؟!

أحلامي وَأَدتُ في بئر الغياب وأخذت عزائها وحدي.

آه يا عمري، فيما أفنيتك؟!

في نواحٍ صامت، وضجيج هادئ، وذهاب إلى جحيم التوهان بلا عودة، اعتقلت جيوش الكآبة أنفاسي، وأصبحت حياتي تعُمها الفوضى، حتى أنك لن تستطيعِ فهمي ولا قراءة ما وراء السطور، لا بأس فأنا أيضًا لا أفهمني ولا أدري حتى من أنا، أمر غريب أليس كذلك؟!

جل ما أعرفه أنني تائهٌ لا سبيل لعودته، الواقع لا يُغير شيء، والخيال لا يُسكِن ألم، إلى أين السبيل إذن؟!

لا أمان هنا، زمهرير الخوف القارص يُكبل أطرافي عن الحراك، أظنها النهاية؛ فعندما تضيع ذاتك في مجاهيل الحياة فأعلم جيّدًا أنه لا يوجد ضوءٌ في آخر النفق، لا يوجد سوى غياهب البأس المتوحشة التي ما إن تصل إليها ستنهشك نهش ضارٍ خميص البطن يُريد فتك فريسته بأي ثمن، ستهديك الحياة نقيضها موتٌ بطئ يُقدم على طبق من عناء، هدنة الهناء اندثرت كهشيم ذرته الرياح!

كغزة، لا يحق لك التعبير عن رأيك ولا الشكوى من الألم، فقط عليك بالصمت، ولكن فكرةٌ مطمئنةٌ داخلي تُخبرني أنه لا بأس بقليل من الحزن؛ فالحياة لا تسير على وتيرة واحدة، وأن الفرح والحُزن يتتابعان كالليلِ والنهار، وقريبًا سأضحك بكُل ما أوتيت من حُزن، يبدو أنها نهايةُ هذه الأنا الخانقة مِنْ الحياة وبؤسها، أشعر بطعم مُر يُعاكِس المفرداتِ في داخلي ويُضاديني، لكنيّ مُترددٌ بين المُضي والبقاء، لا سبيل؛ فالطعم يُصبِحُ حُلواً فكرةً فكرة، بالرغم مِنْ ذلك أشعرُ برغبةٍ عارمة للإستسلام للورديّةِ فينيّ.

أشعرُ بحكةٍ طفيفة في خديّ، عجبًا أأنا أبتسم؟!

كُنتُ أظننيّ قاتل بارع لكن الطفل داخليّ نجا مِنيّ ويال سعادتيّ!

أناظِرُ نفسي كمَن يُعاني مِن الإنفصام ولكن إن كان ذلك جميلاً هكذا، فالأُعاني مِنه حُباً.

كَبُر بؤبؤ عيني مع كلمةِ حُباً وشعرتُ بخفقات قلبيّ تتسارعُ كمن عادت له الحياة بعد ما كان يحاول الإنتحار بطرقٍ بائسة، تتسابق خلايا دميّ مع الأدرالين مخلوط بالدوبامين، كم أشعر في هذه اللحظة إني أود أن أسابق الفراشات!

"تَنْ تَنْ تآر

تَنْ تَنْ تآر ريّ"

بعضُ الدندناتِ السعيدة، لقد أفسد قلبي الحزن فليصلِحها الفرحُ إذن، أنا الآن أركضُ خلف آخر النفق نتسابقُ فيما بيننا؛ أنا وأنا.

أقطعُ طول عشرةِ أمتارٍ سعيدة مثليّ وأنظرُ ليّ المُتشاءم وأضحك، اسمعُ صوته مُغتاظاً: لقد سلبك الآخرون حق الحياة، على ما تضحك؟

أرد عليه: الحقوقُ تُنتزع!

-أنت تدري أنه دائماً ما أُفلتت يداك وانكبت على وجه العشمِ تبكي فقدك وحيداً!

-تحلى بالشجاعةِ هذه المرة وتعشم فيّ، أعطيني فرصة لإصلاحِ ما أفسده الآخرون، أنا أعرف أنكَ خائفٌ فقط، ودَّع خوفك هذا وأمسك بيديّ، أعلمُ أن بعض الوداعات صعبة لكن لا بُد مِنها.

-فلسَفاتُكَ هذه لن تُجديّ نفعاً مع الصراع غير المفهوم داخليّ.

-أتدري أنيّ داخلك، أفهم صراعاتك الداخلية، صِراعاتُنا التيّ لا يفهمها غيرنا، ولا يخافُ حدوثها شخص غير شخصنا، وأعلمُ أنكَ كثيراً ما بكيتها دموع خائنة ودارِيتها في ضحكاتٍ صفراء باهِتة، أُترك ذلكَ وأعطنيّ يدكَ!

-بَلاَ بلا بَلاَ! تُراهات تجعلنيّ أودُ لو انزوي مِنك.

-كلاميّ يمّسُ فيكَ موضع الجُرح وهكذا يُطَهر، خُذ ورودةً بيضاء مِنيّ ولنتفق أن نقفز عند نهايةِ النفق نحو البَهجة التي لطالما كنت تتوق إليها!

-"كُنت" سنسقُط مِنْ قمةِ خيالِك الورديّةِ تلك على حتفنا مُباشرةً. تحل أنتَ بالقسوةِ وتقبل واقعك.

-ويّحكَ لا تخف؛ إنيّ أُجيدُ الطيران، ثَم كما لعلمك أنتَ تتحدثُ مع القسوةِ نفسها، أنا مُختص في خنقِ الكآبة، تقطيع اليأس، إغراق الحُزن، وأشياء أخرى، أُحب أن ابتدءاها بك!

-أتدري ما انت بارعٌ فيه أيضاً؟

كَثرةُ الكلام، واصل حديثك إلى أن أسبقك، استعن بأجنحتِك المزعومة يا هذا عندها!

رأيتهُ يستيقظ فزعاً، لكن على عكس عادته كان سعيدًا هذه المرة، شعرتُ وكأنه نسخة جديدة مطورة من شخصيته السابقة، يبدو أن أناه الآخر قد نجح في جعله يخرجُ مِنْ نفقه الضيق ويدّعي الشجاعة ويقوم بإستعارة أناه الورديّة تلك، يومًا تلو الآخر بدأ يُصلِحُ من نفسه ويواسيها على ما أصابها أحزانٍ وخُذلان، يبدو أن قد استيقظ من غفلته أخيرًا وعلم أن الأوان قد آن؛ ليفني عمره في مصادقة نفسه والسعيّ ليكون نُسخةً أفضل مِن سابقتها، نسخة تملُكُ قلباً لا تُعطِله الأحزانُ عن السعيّ.

أدعو الله أن يعينهُ على ما يختلج في نفسه وأن ويردهُ إليه رداً جميلا، وأن يكون دائمًا بخير.

الأهداف ليست ثابتة، تتغير بتغير المحدثات، وذبذبة المعطيات، تدنو تارة، وتبعد تارة أخرى، وتستبدل في أغلب الأوقات.

بعد أن أفرغ الطارِقُ ما في حوزته مِن قصة، أردف قائلًا:

وأنتِ يا زُحل أي قصة تلك التي جعلتك شاردةَ الذِهن هكذا، وعلى سحنتك مسحةٌ مِن شجن؟

أخبرينا كيف خُبِأ شعاعكِ وقد كُنت أكثرنا تألقًا؟

فكرت النجمة زُحل في شُرودِها قليلًا ثُم قالت في وجم: أقل ما يمكنني قوله: أن لا شيء كامل في هذه الحياة، وكل شيء سرمدي في هذا الكون قد كان له ماضٍ سحيق، ولا حاضر بلا ماضي، ولا يستطيع أحد تغيير ماضيه أو نسيانه، كل ما عليه فقط هو الإسفار عنه، وسيأتي اليوم الذي سينثر البريق عليه.

قد كانت حياتي مختلفة، فنشأت من علاقة تالفة، وقبل موتي عاد إليّ الوهج بحب يزن لي، وبإهماله يخفو ذلك السناء حولي، ولكنه بحبه لمزن تكون لي فرصة أخرى لأعيش طوال حبهما.

ولأكمل الحديث عن يزن ومزن، فبعد تتابع عزم يزن، وتضحيته بترك تعليمه، رغم ثني الناس له عن هذا القرار، وتحمله عنت لا يقل عن عامين، أتى ليدق الباب ويكلل ذلك الغرام أمام الملأ، أتى ومعه شمعة ويصبو للزناد الذي سيذهب العمى عن مداره، أتى يعِدُ أبا مزن بالترف لابنته وهو لا يملك بيتًا سوى غرفة مع فسحةٍ صغيرة اقتسمها من منزل والده، أما عن المطبخ ودونه فهم مشتركون مع البيت الكبير، أتى ومعه عُلبة حلوى وبعض أصناف الفاكهة - المانجا، البرتقال، الموز- ويعاهد أبا مزن أن لا ينقطع غصن الزيتون عن حياتهما، أتى مع والده وأخيه، ويقسم لأبي مزن أن الأسرة ستفرح وتفرش بساط الأريج؛ لتستقبلها، أتى وهو عامل صيانة في ورشة، ويشترط لأبي مزن أن تترك تعليميها، وستيعيش بكنفه دون أن تنقصها إبرة، أتى وهو يرتدي ذات القميص منذُ خمسة أعوام، ويقطع ريب أبيها في أن تعرى يومًا، وما مني في شكٍّ من صدق كلمهِ، ولكن أيعي العقل لوعودٍ مستقبلية وهو يرى بأم عينه الحقيقة الجرداء؟!

عندما تحركت شفاه أبي مزن كأنما تحركت مقصلة اجتزت أحلام يزن واحدًا تلو الآخر، أو كما فُتحت ضلفتا بابٍ عصفت بكل مشاعره، ولربما أسنانه التي ظهرت خلف انبعاجات شفتيه،

لم تكن في الحقيقة كلمات؛ بل هي قاطعة ميثاق، ومهدمة لما بين ثنايا ضلوعه، ولسانه الذي تحرك كان بمثابة فأسٍ نهى بساق شجرة عشقهم الوارفة التي تفيأ كلٌ منهما بصندلها العطر، وفي ما لا يتجاوز سطر انتهى حُلم دهر، كل ذلك حدث بقوله: في الحقيقة إن مزن مخطوبة لابن عمها، كما في عُرفنا.

فرد يزن: ولكن يا عمي، قد جئت لأخطبها أنا الآن.

أبو مزن: يابني، أنت الآن تعاهدني على صفقة لخسارة حياة ابنتي، ثم إنكم لازلتم في مهد شبابكم، ولا داعي للعجل.

يزن: حسنًا يا عمي، دعها خطوبة، لحين تنسيق أموري، وبعدها سـ...

أبو مزن: ءأسف لك يابني، لكنها مخطوبةٌ لابن عمها.

يزن: ولكن يا عمي... ومن ثم نظر لأبيه وأخيه، ووجدهما في موقف استسلامي، كأنما هبت الرياح عكس ما أرادت الشرائع، وما لهم غير مسايرة الموجة والخضوع للتيار، فخرج بسرعة ووجد خلف الباب مزن، وتنهمر من عيناها دموع الخيبة والخنوع، وتنقرح بين ملامحها العبرة، والقصة تخنق زفراتها من الولوج، فما منه سوى أن ربت على كتفها ومسح دمعها، ودلف خارج المنزل يجتر معه الوجم وكسرة الخاطر، وقد لحق به أبوه وأخوه، لا يقوى أحدهم على تخفيف وجمه، وما إن واجههُ والده؛ ليعظه، قال له يزن: دع عنك يا أبي، أعلم ما ستقول، ولا أريد ملاطفة أو أي شيء، فقط سأذهب ولا أريد أن تبحثوا عني.

كما ترى يا عزيزي، خبئ ضوئي، لم يبق الكثير مني، آه يا ليت حبهم يعود، ويا ليت لو كان يزن عاد لمرةٍ أخيرة؛ ليرمي بوادئعه لأمه!

كنت كثيرة الأسى والتحسر حيال حاله، تمنيت لو أمكنني التربيت عليه، تمنيت لو أن بإمكاني منحه مزن، لما تثانيت للحظة عن جمعهما، كنت أراه يترنح بقوارع الطُّرق، يطلق سراح دموعه ويشهق العجز، يسير بحوافل البشر كأنه لا يرى أحد، أو بالفعل قد فقد رؤيته؛ فمزن كانت كل ما صوَّب عليه حياته، إلى أن تعثرت قدمه وسقط بجانب مكب نفايات، وأول ما وقع عليه نظره، قد كان أنا... لن أنسى شكل حدقة عينيه الغائرة في برك المناح، همهم بكثير من الكلمات، لم يرتد أي منها لي، ولكن آخر ما قاله: لماذا كان قطع العلاقات سهلٌ وسلس، وأنتِ أكثر من يعلم كيف خارت قواي حتى تبادلني بابتسامتها؟!

أجيبي يا نجمتي، فهذا سؤالٌ واحد، وأنا آنستك طيلة عمري، أجيبي ولا تصمتي مثل ما فعلوا، قد تركوني أُصد وقُلل من شأني دون حراك ساكنٍ لهم، وبآخر لحظة جاءوا ليعظوني، وهم لا يعلمون كم تعبت لأبلغ وجه مزن أمام أبيها وأثبت لها أن عهدي لن ينكسر!

أجيبي... أم أنني قد جننت!

إذا البشر قد أكل القط لسانهم، فكيف تحادثني نجمة تؤول للاختفاء؟!

بئسًا لي، ولليوم الذي وقع ناظري فيه على مزن!

قد جفلت عينا يزن وهو يحدق لي، وبذات اللحظة قد خفا سنا جانبي الأيسر، وبذلك علمت أن قلبه لم يحتمل ذلك الرفض، رغم أني أعلم لو كان بمقدروه معاودة ذلك الباب ثانية لفعل عشرة مرات؛ فحبه لمزن يرضخ كفوف العالم، لكن من يُربت خاطره الذي تناثر خلف ذلك المدخل؟!

وها أنا ذي، أشوق لقدوم رياح الحول؛ علَّ ذلك العتم، يكونُ احتواء لي؛ فإني قد سئمت الضياء، ولربما قد يكون الظلام هو كفائي.

كما تحتاجُ ساقية المياه دَفعة الرياح العنيفة لتتحرك، يحتاجُ الساعي صفعة قوية بيد الفشل ليصل.

تلألأت أعُين النجمة زُحل دُموعًا عُقب سردها القصة؛ لعجزها عن مد يد العونِ لما تلقاه مُزن من أسى.

قهقه النجمُ أشهب في ضحكة ساخِرة على دموع زُحل التي يراها سخيفة، مُردِفًا مخاطِبها:

وإن استمعتِ لما أحمِله من قصة، أستبكين دمًا، أم ماذا؟!

وليد المآسي..

مَن كَانَ سيُصَدِق؟!

ولِد بطلي في زاوية مِن حُطام دولةٍ من بين إحدى عشر كوكبًا وسبع قاراتٍ، تقع عِند أقصى الغرب وفي إحدى القُرى المُهمشة كدواخِله، صرخ صرخته الأولى في وطن تُجهض فيهِ الأفكار قبل الولادة؛ لتُعلِن الحرب على الواقع الأليم.

الوطن أرضٌ تُحِب الشعب والشعب يحترم الأرض فحسب، رضع فيه طفلًا وترنح بين أحضانه شابًا، وعاش في ربوعِ الوطن رجلًا لا ينتمي للمكان بقدر ما ينتمي للإثارة والسلام، يبدأ موطنه من حيث يجد العَدَالة والأمان.

تلقى تعليمه ولم يُلمَّ بشيء سوى القراءة والكتابة فكان ينتقل من صف لآخر بأعجوبة ويعبر من مرحلة لأخرى بأقل مجهود، فهل هو ذكي أم عرَّاب امتحانات؟!

هذا السؤال لا يقوى على اجابته أحد سِواه.

جميعها لم تكن اختياراته؛ فما حملتهُ أكُف القدر يؤخذ جبرًا ولينًا، وخلف كل الجبر توجد خفايا جميلة تتوارى عنّا.

عاش مُتقلبًا، طفلًا كان أم صبي لا يمكنك تمييز لأي مرحلة عُمرية ينتمي؛ دائمًا ما يختارُ منحنى مُحايد خلاف الذي يحشر عبره الجميع أنوفهم؛ ليدعوا معرِفة الحياة.

مُتقلب الأطوار يراهق مرةً ويشيبُ تارةً ويُهرمُ تارةً أخرى، وإن تراه تجزمُ أنه مجنون؛ لما بدا من ملامحه.

تبنى العشوائية، فقد بَنَّت الفِكرة: كُل ما يحدث من حوادث هو حدثٌ صحيح ولكن الخطأ هو نظرة الناس من جانب واحد. مضى وهو لا يكترث لنفسه على أي حال سيكون أو أين يكون، كما لو أنه يعيش في العصر الكمبري القديم، مع ذلك سيجذبك سحره من الوهلةِ الأولى.

اختارت الخُطورة أن تكون أنيس مسيرته الجامعية، ازدراهُ رفاق الجبهات السياسية واحتقره ساسة البلاد فتلاعب بهم فما استطاعوا لوقفه سبيلًا إلا بالإعتقالات.

زُجَّ به في قاع السجن مع رفاق المنفى، لكِن أيُنادي الطيرُ للحرية في عُشه؟!

فقد قادت سلامُه الكلِمات "أنت حُر ما لم تضُر".

عاش يقتات حروف الفلاسفة ويأكل من كُتبهم ويشرب من جُب المعرفة حتى تقيأ ذات يوم بمقال أعاده لقعر السجن مرة أخرى.

ولكن هذه المرة أبت البرجوازية أن تمنحه رِفاق؛ فقد سمِعتهُ يُردد المالُ وسيلة ليس بغاية، ولكن جاد عليه الهامش بأصحابٍ عركتهم الحياة في مطب الأحزان وقذفت بهم في رُكامٍ من الخيبات، كلما صفعتهم الحياة صدّها بصمودِ مقولتِه:

"العالم ليس كُل شيء هناك مفاجأة قادمة".

نُصب له من الحُب فخًا وأتت العواطف تقتاده؛ فقد تورط وللمرة الأولى في أسوء بِركة يمكن الوحل فيها؛ فما إن يغطس جُزءٌ مِنك حتى يجُر ما يعلوه لتجد نفسك عند القاع.

لا تسُر البِرك نظر أحد وإن حفها الزهر، لكِنه الحُب يصنعُ للأعيُن أغشية، فإن أصِبت أحببت بكل قواك، وفي الآخِر ستتزوج بمن لم تحب وتحب من لم تتزوج، فما إن أصبحت في حياته كشروق الشمس حتى حل عليه كُسوفٌ أبدي، بعث له أشعةً تقول:

يا أسفا على خبية المُحِب، ثلاث محيطات وما يزيد عن الثلاث مائة دولة وغابات الأمازون، ثم يأتي أحدهم يتزوج بالمرأة التي أحببتها أنت فقط.

مُفيد فالغياب يُعلم الأوراق كيف تحيا دون ضوء، بعد أن يبدو التشوه في أطرافِها، مع ذلك لم يتغير الكثير ستظل المرأة في نظره طفلة أيًا كان عُمرها، وأن الفوز باللُعبة ما هو سوى حظٍ عابر.

شرع في بثق ما مَر به؛ لُيفرق عن نفسه، علَّ الدفاتر تحمل مِن ثِقله القليل، لم يفكر في الهجرة؛ لأن الأمكنة عنده ليست شيء بل الراحة حيثُ يجد من يحدثه كما يحدث نفسه، فالشوارع مهما زُينت سواسية.

غير أن الحياة اجتالته؛ لينفض أوجاعه حرفًا حرفًا وكلمة تلي الأخرى حتى وقع عن طريق الصدفة في أصحاب أخذوهُ من ساحات النضال جرًا فتغير معهم كُل شيء كان، وبعد عشرون عامًا من النضال الآن يتوسط كوكبة من رفاق القلم والمعرفة كانوا هم الأفضل طوال سنين القتال المستميت، الآن بات يضرب عقبات الحياة بالقلم لا السلاح، فمات البعضُ وانسحب الآخر.

النجاح أمرٌّ حتمي ما دامت الرغبة تتأجج بداخلنا، لكن إن انطفأت الرغبة، ماتت شمعة النجاح وأُظلم الطريق إليه.

هدوء قد اجتاح المكان، أهو أسى حل على المُستمِع إثر قِصة أشهب، أم أن هُناك أفزع مِما حدث؟

لم يكنُ أحد الخيارين بل كان يعقُب أشهب، صوت هادئ تتخلل نبرتهُ مظاهِر النرجسية وبعض الحزن، بثباتٍ وتفاخُر بدأت النَجمةُ سديم-صاحبة الصوت- قائلة:

ما أن يفرد الظلام وشاحه متتسللًا إلى كُل بقعة على الأرض حتى أبرز؛ لأزين صفحة السماء وأطفىء لونها الفاحم، لعلي بريقي هذا أحملُ العطف لزهور الأرض، وأساعدهم ببصيصٍ من لآلئي، وأدُلُ رِمال الصحراء التائهة، وأعمل على ترميم ثغرات القلوب؛ فغريزتي تأبى قسوة العقبات وملامِح الخيبة.

وفي ظلمة ليلٍ بهيم استرقتُ النظر يُمنى ويسرى إلى الأرض، فسمعتُ في أحد المنازل جُدرانًا تصرخ وتُنادي مستغيثةً كأن من بداخلها يحترق، لمع شُعاعي ورست أطرافُه عنده، يومها وجدتُ شابًا شائب الملامح، وجدتهُ مُكبلًا تنقّضُ عليه أنياب التعب والمشقة، وتقهقه سُخريةً منه متاهات الحياة وألاعيبها، يمكثُ غارقًا في ديجور عقله، كسبّاحٍ جرفته أمواج البحر العنيف عنوةً عنه، لا يكف عن محاولة النجاة ولكن تأبى الرياح أن تسانده حتى تتهلل أشعة الحب؛ لتعيده للحياة مع زقزقاة الصباح البهي، ولكن هل شروق الشمس يكفي للنجاة أو النجاح؟!

اختار أن يكون الاجتهاد قائدًا وشعارًا له، دائمًا ما يُشيد به معلميه ويثنون عليه، وكما العادة سري إليه حقدٌ خفيّ من زملائه، فالذكي محقود والمحبوب كذلك، غريبون أولئك البشر؛ فيهم شرٌ أظن أن إبليس أفرغ كل جهده ليضعه فيهم، وسوس لهم فاتبعوا خطواته وارتضوه مُعلمًا، وليس غريبًا أن ترى بغضًا وتنكر فاعله وهو بالأصل كان أول من فرضه وطبق تلك الفرضية.

تلألأ الحزن في عينيه يوم طرقت أذنه كلمات صاحبه، ظنًا أن الحديث لن يجد إليه سبيلًا، قد كان ما قال وهو مبتغض وضامرٌ في جوفه الشحناء:

« يُلفت النظر بتفوقه المكذوب».

كُسر ظهره بمطرقة البُهتان، وهُدم ذاك البنيان الغليظ للعلاقة، وليس الكسر كسر عظامٍ وفقارات إنما كسرٌ لأقفال الثقة المحكمة بقوةٍ، وألم كسرها يعادل ألم الخشب عند اختراق المسمار لجداره المتين.

مضت الشهور في سِباق من سينتهي أولًا، في محاولة فاشلة لنسيان ذاك الجرح.

مضت سنينًا عجاف لم يلملم الجُرح أطرافه ليبرأ، لا بل رمت له الأيام بآخر أشدّ منه وأفزع، فقد الوالد!

ها قد تهاوت الرو؛ لفقد ذلك الكنف الدافيء والقوي، العمود الذي يتكئ عليه، والسلم الذي يرتفع به في الدين والدنيا، المؤدي لكل الأدوار: الأب الحنون والمربي الفاضل، صديقُ السراء والضراء والأخ عند الشدائد، من كان يبعث في النفس الحياة.

هُدم بناءه الداخلي المتين؛ فقد مات الحارس وسُمح للأعداء باقتحام القلعة، أيحتمل أهل المملكة العيش دون ملكهم؟!

أن تفقد أبًا يعني أن تصبح أبًا لأهلك، كيف يحدث وهو أيضًا يحتاجُ لأب؟!

حِمل مسؤولية العائلة الآن على عاتقه، أخٌ أكبر يعني أنه الأب الصغير، أبٌ يعمل من بزوغ الشمس إلى غسق الليل؛ ليوفر لقمةً حلالًا يُطعمها لإخوانه الأربعة، أبٌ يعمل ليدرس ومن ثم يعمل مرةً أخرى...

« لا »... قالها وهو في أوج ضجيج أفكاره المتضاربة، أيدرس ليدخل مجالًا يحبه، أم يعمل ليساعد عائلته المبتور طرفها؟!

مصير ذاته ومستقبله في كفة، وثُقل المعيشة في كفة، سهر الليالي يُحدثُ الظلام ويحضُن الهموم.

لطالما غمرني الرغبة في أن أسامره، صحيحٌ لا حلَّ عندي لهذه المعضلة، لكن عساني عنه أُخفف، أو أن بريقي حين يشع بين عينيه لوحشته يؤنسُ، في مقامِ باقةِ ضوء يتسمد منها القوة؛ لينتفض ممسكًا تلك العصا؛ ليعبر الطريق المعتم في كيانه.

عادت لعنة الضغوطات والتحديات تحيط به كأوتادِ الخيمة، وتترصد بحذر كأسد وجد فريسته_نعم_إنه كان الفريسة لأسُودِ الأقدار التي وقع بين يديها.

جار الزمان عليه، نهشت الحياة عظمه بمخالب فهدٍ مغوار، كيف لا يحدث كل هذا وهو الآن عالق بين تحقيق ما كان يصبو إليه من صغره وبين تحمل مسؤولية عائلته؟!

قلقه الدائم ينخر في رأسه كطائر النقار، لا يفارقه فقد بات صديقًا له، خوفًا من الفشل الزريع الذي يراه أمرًا حتمي بعض الأحيان؛ يؤل قلبه للإستسلام التام، لتهب نسمات الأمل فتربت عليه بحنان الأم، بعد أن تحدث عن كمٍ هائل من المخاطر التي خاضها في معارك لا ترحم.

هكذا بات حالهُ مضطربًا، لا يعرف للراحة سبيل، يعيش بجهد مستمر متقلب المشاعر، أضحى الحنين إلى لحظات الهدوء حلم يطالعه من شرفات الرجاء، ولكن لا تتطاله يدهُ، يهزئ في نومه؛ فكلما أغمض جفنيه للهروب من واقعه إلى عالم الأحلام طاردته الكوابيس؛ لينهض فزِعًا تسيل من مدامعه دموع غائمة، تتهشم روحه، تحفه المهالك، يمتلئ فكره بضجيج مهند يخدشه ويخدش حلمه الذي يريده، ينبض فؤاده بمعركة محتدمة عنوانها العائلة، يتردد صدى ماضيه الذي كان يملؤه البهجة والمسرات والصعود نحو أدراج السعادة، لكن كل شيء تحور؛ فالأسى بات رفيقه والتيه أضحى ملاذه، لكنه لم يمل من أن الأمل قادم، ظل يتشبث برمقات القمم فالتقطته رياح القدر وسقط كل شيءٍ كان يحمله في طرف قميصه: الأهداف، الطموح، حتى ذاته تحطمت وفرت هاربةً وكأنها تتبرأ منه، كاد أن يبلغ القمة لولا أن الطبيعة تمردت وفقد ما فقد من أشياءه البسيطة وخططه التي يظل مكانها الأوراق فقط، يسير على أنه إنسان وداخله قبور تحمل كل ما كان يرنو به وبكيانه السابق الذي كان عليه، يريد أن يستيقظ من هذا السبات ويعود إلى حياته التي فارقته، يحتاج فقط لبريقٍ خافت يجعله يصل إلى مبتغاه و في الوقت ذاته لا يتخلى عن مسؤولياته!

تنقبض ثناياه تارة أخرى عندما يتذكر عماده الذي إذا كان على قيد الحياة لما تزحلق على أيدي الحزن، لم يكن يعلم أن هذه الحياة مؤلمة بلا سند، وأنها لا تعطي غير الصفعات والنكبات، أصبحت حبال المعاناة حضنه السرمدي، وقطرات المحن تزداد لترويه، لا شك أن شعوره كطفل في الثامنة من عمره يحلم بمستقبل مشرق، لكن الآن هو ابن التسبعينيات_ عجوزًا_ يلبس الكفن وشاحًا، ويتغنى الموت قادم!

نعم، تلاشت كل السبل والغايات التي يراها، وليتها تلاشت؛ فإنها تقبع في الحنايا كملفٍ محفوظ في بريد إلكتروني فقد صاحبه الهاتف فضاع معه لكنه موجود.

لا يدوم اليأس، فطريق العناء حتمًا سيفرش بالأهازيج، لأن ما بعد الضيق الوساع والاتساع.

وحقًا العسر إن طال فاليسر يعقبه بثقة من الله، والاكتساح بالصبر.

تغير حاله من سعادة إلى مشقة ومن مشقة إلى مشقة، اختناق وضيق، واختناق أيضا ثم ضيق، توقفت نبضات قلبه، شهقات النهاية تنبئ على أنه حان وقت الهلاك، لا المضي في سبيل المراد، ولا عمود يستند عليه من يحتاجون إليه.

أفاق من هفوات شيطانه و عقله الباطني الذي كان يقف معه جنبًا على جنب، أراد أن يرتاح من كُل هذا؛ فعاونوه.

مضى ليسعى في عمله، لا شك أن عائلته تحتاج الكثير من المتطلبات، بعد أن تفرغ من كل شيءٍ يخصهم، ركض على كتبه ليقرأ، يدّون كل شيء يشعر بأن له أهمية، ويعيد الكرة مرارًا، يحمل أغراضه ويعود وفي ثغره إبتسامة.

أصبح هذا الحال روتيني لسنوات عدة...

مرت أيامه بحلوها ومرها وفي طياتها تحمل الكثير، دعوات أمه وهي باكية، واستجابة الله وجبر خاطره.

جبره لأنه جبر كسر بيتًا بأكمله حتى على حساب شخصه.

جاء الوقت الذي سيتوج فيه، أعلنوا اسمه كبروف دراسي، وكعظيمٍ رغم صغر سنه، تلون بالمشيب ولا يبالي،

انهال رذاذ الورود عليه من الأصدقاء وكل من يعرفه، ذهبٌ يتساقط من مقل ملاكه الحنون ومعاها نظرات تحمل الرضا وكلمة (بحبك يا جناي)

هناك يقف أطفاله الذي أهدتهم الحياة له، يصفقون بمرح ويهتفون يا فخرنا يا عزنا.

جمال النجاح والغاية يكمن في هذه اللحظة، ورؤية أهله يلتفون حوله زادته حبورًا.

وهو على هذا الحال، رجعت به ذاكرته إلى الخلف لتذكره بالضجر الذي كان يلازمه، فضحك عليه حتى ترقرقت بؤبؤتيه وقال:

عجبًا لهذا الدهر يجعلك تلعنه زمانك كله ويأتيك بلحظة يقلب عباراتك رأسًا على عقب، ويقلب حالك لما كنت عليه من قبل بل وأجمل!

كل القصص تتشابه، فهي تكتُب منذ الأزل بذات الحبر، ويُرسم ويُخط طريق الوصول على ذات اليد.

هُناك دائمًا من يجعلُ الوطن مِحور كل ما هو جميل، فيتخذه أمًا وأبًا وملجئًا، لكِن يحدُث أن يصفعك الوطن مرة، فتشعر أن كل ما هو جميل قد نبذك، هكذا ما حدث مع وليد المآسي بطل قصتي-قالها النجمُ نسر- ثم أتبع يحكي:

الرحلة المُتجهة من مطار الخُرطوم الدولي إلى مطار برلين براندنبرغ بالعاصمة برلين الألمانية.

للوالدان (حاجة فاطمة وحاج أحمد) فتاةً ربيانها على القوة وعدم الإتكاءِ على أحد، كان يُخبرُها حاج أحمد دائمًا بأنها السند الوحيد لنفسها، وأن يداها هما اليدان الوحيدتات اللتان تستطيعان التربيت على ظهرها عند الشُعورِ بالإنهزام، ويدها اليُمنى هي يدها الوحيدة التي يجبُ أن تتكئ عليها لتنهض عند سُقوطها، هي لم تكُن قليلةٌ قط ولكن وفي ذات الوقت كانت تُحسُ دائمًا أن سعادتها ينقُصها شيءٌ ما، لرُبما نجاح أو حلمٌ يتحقق أو حتى شخص، فقد كانت تعاني من نقصٍ جلل في الأصدقاء وصُعوبة فائقة في ثقتها بهم؛ لذلك كانت تجعلُ مسافات طويلة بين قلبها والشخص الآخر.

قد قرأتْ في إحدى الليالي عن جمال اتخاذ القرارات في الليل، وبدون وعيٍّ منها قررت السفر للبحث عن السعادة التي ربما تكون مُختبئةً في مكانٍ ما خارج الوطن، ولدراسة هندسة المِعمار-حُلم الصِغر الذي كبُر معها دائمًا-وكانت الوجهة إلى ألمانيا حيثُ عُرفت هندسة المعمار بقوتها، قادتها الطُرق بين أزقة برلين الضيقة وعبر فسحاتها الواسعة وشوارعها المُزدحمة حتى وصلت إلى سكنها حيثُ بداية البدايات الجميلة والمُزدحمة جدًا بالمشاعر.

بعد أن جلست في الفراش، أخذها عقلها للتفكير في كُلِّ الأمور القادمة، بدايةً بماهية الحياة الجديدة بعيدًا عن الوطن والأهل والتفاصيل التي اعتادت عليها كثيرًا، وأنه كيف ستكون شاكلة

الدراسة في هذه البلدة الغريبة عنها كثيرًا بمبانيها وشوارعها وسُكانها، فلطالما كان لديها خوفٌ لم تُحدِّث أحدًا عنه قط، من الأشخاص الجُدد والشعور بالوحدة في مكانٍ ما، رغم أنها توقنُ بأن والديها هُنا بجانبها دائمًا، إلا أن الشعور بالغُربة البغيضة لا يُمكن التحكُم فيه، ولن ينتهي حتى تخطو قدماها مرةً أُخرى في شوارع البلاد.

-بعد خمسة أعوام:

أخرجت كتابًا غلافهُ قُماشي أسود اللون، يحتوي على جيب في مُقدمته، وضعَت داخله ورقة خطت فيها ببعض الكلمات التي تُشبهها كثيرًا، ثم فتحت الصفحة رقم خمسون وبدأت تكتب:

"آمنتُ دائمًا بأن بمقدورِ الإنسان تحقيق أشياءٍ لم يُخبرهُ أحدٌ عن سوءها أو حتى صعوبة تحقيقها ووعورة السير في طريقها، فأنا لقِل علاقاتي لم يكُن لدي شخصٌ يخبرني ألا أفعل الشيء هذا لصعوبته أو أن أسير في ذاك الطريق لسهولته ولأنه طريقٌ مُختصر، الأمر يشبه الطالب الذي غفى في حصة مادة الرياضيات وكان المُعلم قد طرح عليهم إحدى مُعادلات الرياضيات في العالم التي يستحيلُ حلها، لم يُجرب أحدٌ من الطلاب حلها لأنهم علموا أنه من المستحيل حلُها، ولكن عندما استيقظ الطالب ظن أنه واجبٌ مدرسي كتبها في دفتره، ثم قام في اليوم التالي بحلها وقدمها للأستاذ، في الواقع كان جوابه صحيح جدًا، لو أن أحدًا أخبره أنه من المستحيل حلها لما حاول ولما نجح، ولكن الأمر برمته يكمنُ عند ما يعيه ويسمعه عقلك الباطن؛ فاحرص على إسماعه كُلَّ الأشياء التي تجعلك تقُوم بأشياءٍ رائعة.

في عامي الأول في الكُلية كنتُ وعلى غير العادة مُتحمسةً للغاية، رغم أن الحياة هناك لم تكن سهلة أو حتى كما تخيلتها أنا، كان عليّ تعلُم الألمانية بجانب لُغتي الإنجليزية التي لم تكن جيدة للغاية، وكان علي أن أكون ماهرةً في كليهما، لم أكن أملك وقتًا كافي للذاهب كُلَّ يومٍ لمعهد تعلُم اللغات؛ فقد كان يومي يكاد يكفيني بعد العودة من الكُلية لمراجعة الدُروس والتجهيز للإختبارات المُستمرة، ولكنني أصررت على الذهاب كُلَّ يوم، كان العام بأكمله مُرهقٌ للغاية، أنام حوالي ساعتين أو ثلاثة فقط، حتى بعد أشهرٍ طويلة تخرجتُ من المعهد بشهادة تفوق، وكان أيضًا اختياري للسكن الفردي في هذا العام موفقًا للغاية، وحرصتُ تمامًا على ألا أخبر أحدًا لتفادي جُمل الإحباط والعبارات المليئة بتزويد المرء بالخيبة.

ثُم في العام الثاني أجبرني والداي على مشاركة السكن مع طالبة رغم رفضي، خوفًا عليّ من أن يصيبني مكروه ولا يعلم أحد، لم تكُن الفتاة جيدة للغاية، كان لديها الكثير من التصرُفات

المُريبة، ولطالما اجفلتُ من الاقتراب منها، كُنت حذرة للغاية ولم تجمعنا إلا المواضيع المُهمة والمتعلقة بالسكن.

ثم مضت جميع السنوات الثلاث الأخرى بكثيرٍ من الطُرق القاسية التي سرت فيها وحيدةً، والكثير من المشاكل التي في مراتٍ كثيرة كانت ستؤدي بي إلى الاستسلام، عانيت من التنمر من بعض الطلاب لإختلافي عنهم، لأنني مُسلمة، للوني المُختلف ولكوني عربية، رُغم أنني كُنت أحاول تفادي كُلَّ ما يُرهقني إلا أنه لا ينال المرء دومًا كُلَّ ما يود أو بالطريقة التي يُريدُها.

في اليوم الذي يسبق تخرُجي، كُنت مستلقية أفكر في كل السنوات الماضية، وعيتُ مؤخرًا على أنني منذ أن أتيت لم أعش سعيدةً قط، لم يكُن الواقع يشبه خيالي، ولا الحياة التي عشتها تشبه الحياة التي خططت لها، لم أحظى بمشاويرٍ مع الأصدقاء وليس لدي ألبومٌ مليء بالصور معهم كما تمنيت دائمًا، لم أوثِّق أي لحظات لأن جميعها كانت عاديةً جدًا، لم أزُر الملاهي مع صديقتي المُفضلة ولم نتمشى ونحنُ نأكُل الآيسكريم، ولم نخرُج معًا لنجري تحت المطر في الليل، لم أحظى بسُكنة معها نشاهدُ الأفلام بإضاءةٍ خافتة ونأكل الفشار وأنواعٍ كثيرة من رقائق البطاطس، ولم نتسوق معًا لساعاتٍ طويلة؛ لأن لا صديقة لدي؛ فقد كن جميعهن زميلات، لم أزر الأماكن التي تمنيت زيارتها، ولم أحقق ولا أمنية واحدة، وحتى الآن لا أشعرُ بسعادة لأنني سأتخرج غدًا كأن الأمر عادي، يؤسفُني أنني لم أجد سعادتي هُنا أيضًا، ويعزُ عليّ أن أقول أنني لا أشعر بالنصر، رغم أنني تعلمتُ الإنجليزية التي لطالما تمنيت اتقانها كما يفعلُ المُمثلين في الأفلام، وبجانب هذا حظيت بفُرصة لتعلُم الألمانية، وها أنا الآن اتخرجُ بإمتياز وبشهادة ستجعلُ والداي فخوران جدًا، إلا أنني لستُ سعيدة.

بعد عامين:

هي الآن أقوى من أي وقتٍ مضى، صحيحٌ أن تحقيق الإنسان لأحلامٍ وجد فيها نفسه يجعله راضيًا تمامًا، والرضى يولدُ القوة، لم يكُن اختيارها للهندسة خاطئًا بل كان واجبًا عليها اختيارها والعيش بين تفاصيلها لتتعلم أمورًا عدة، ولم يكُن اختيارها لبرلين خاطئًا بل كان هذا بابًا من أبواب تجارب الحياة التي لن تنتهي، بعد خمسة وعشرون عامًا قضت ثمانية عشر عامًا منها في البحث عن السعادة حتى وقع اختيارها على البحث عنها خارج الوطن، ثم قضت خمسةً منها في مكان لا يُشبهها ولم تجد السعادة فيه، والعامين الآخيرين كانا هُما ذاتها الحقيقية وسعادتها التي بحثت عنها ثلاثة عشر عامًا، اليوم ابنة (حاجة فاطمة وحاج أحمد) العظيمة كما

والديها تقفُ في المسرح وتلقي كلماتٍ تخرُج من فمها وهي مليئةً بمشاعر السعادة والحُب العظيم لبلادها، الإمتنان للثلاثة وعشرون سنة من عُمرها ولوالدتها رحمها الله التي لطالما تمنت رؤيتها هُنا وقد اصطفاها الله للمكوث بجانب عرشه الكريم، ولوالدها الذي وقف بجانبها دائمًا:

"أنا حُور، الفتاة القوية جدًا قوةً لطالما استمدتها من قوة والدايّ، عشتُ عمرًا ابحثُ عني وعن السعادة التي لم أجدها طوال ثلاثةً وعشرون عامًا، أحببت هندسة المعمار مُنذُ صغري وكبُر الحلم معي سافرت إلى برلين عاصمة ألمانيا خمسة أعوام ولم أجد سعادتي هُناك، ثم آمنتُ أن جميع اختيارات البحث عن السعادة بعيدًا عن الوطن خاطئة، عُدت منذ عامين وبدون تخطيطٍ مني اكتشفت أن سعادتي تكمنُ في كوني كاتبة وأنا الآن مُتحدثة تحفيزية، قارئة لمئات الكُتب، مُستمعة جيدة، وكاتبة أكتب للوطنِ دائمًا اعتذارًا على كُلّ السنوات التي قضيتها بحثًا عني خارجًا، وأنا اليوم لا أراني في مكانٍ خارج الوطن، والسعادة الحقيقية تكمُن في أن يحقق المرء أحلامه في تلك الأرض التي وُلد فيها ولن يحتضنه احدٌ سِواها، أما آخرُ كلماتي أرسلُها إلى أمي القريبة جدًا:

"رُغم المسافات التي بيننا ألا أنني أعلمُ أنكِ حاضرةً هُنا، تسمعينني ولم تُفارقيني قط، أمي أنا اليوم ابنتك التي لطالما تمنيتي رؤيتها تُكللها النجاحات من كُلِّ جانب، قوية، ماهرة في كُلِّ شيء مثلُكِ تمامًا، وكما قيل دائمًا:

"إن المرء عظيمًا بمقدار عظمة والديه" رحمكِ الله وجمعنا قريبًا، وختامًا:

" لا تنسوا، لا تبحثوا عن سعادةٍ خارج البلاد، ففي كل شارعٍ تكمنُ سعادة أحدُنا "

قيل أنه في الحياة دائمًا هُناك متسعٌ لحياة أفضل، لكن أحيانًا يضيق المُتسع وتعصف الحياة بنا فلا نَجُد سبيلًا سوى إرضاء رغباتها والاستسلام لها.

قالت الجَوزاء يا نُجيمات، لا تَخلُو القِصص مِن الأحزان والخيبات، فقط تتفاوت نِسبها، ويختلِف تحمُل الأبطال لأثقالِه، فينزوي البعض ويقتُل البعض الآخر نفسه ببطئ، مُستخدمًا أساليب لا تَليق بالأرواح، لكِن ماذا تفعل الروح إن يأست الحياة؟!

هُناك طُرق جديدة للعيش، كصُنع عالم جديد سُكانهُ أنت وأنت، هذا ما كان يحدُث مع أحدِهم في غرفةٍ هادئة لا يسمع فيها سوى ضجيج الدواخل، سمِعتُهُ يقول:

أرأيتِ إلى أين وصلنا يا أنا؟!

كم من المؤلم أن تظل تحفرُ لأعوامٍ حتى يقصمَ ظهرك، تلتوي أصابعك ويشتعلُ رأسك شيبًا قبل أوانهِ؛ لتزرع بذرة نجاحِكَ على الأرض التي خُصبت بسمادٍ يشوه الملامح ويكوي الجلد ورغم ذلك يُحي النبت، لكن الأمر مختلفٌ هنا، مات النبت بعد أن تهشمت الأقلام وجف الحبر، وعلمتُ حينها أن البذرة كانت فاسدة والأرض لا تصلح لتحتضن نباتًا لينًا ورقيقًا لا يُثمر مهما كلف الأمر.

متعبٌ حقًا أن تحاول الركض في ساحاتٍ واسعة ليست لها بداية ولا نهاية؛ لتبلغ نهاية مسطَّرة في قاموسك فقط ولا يعترف بها العالم.

أخبريني الآن عن من يطفئ بركان الشعور بالذنب الذي يغلي بداخلك، من يوقف شلال الحمم الذي يقتاتُ على هيكلك؟!

من يمكنه مواساتكِ واحتضانكِ إن كنت هشَّةً من نسمة الهواء تذوبين!

لكنكِ تماسكتِ كثيرًا ولو كنت مكانكِ لاعتراني الانهيار من الوهلة الأولى، كُنتِ قويةً للحد الذي جعلكِ تعتادين السير على الطرق الموحشة فارغة من سلاحٍ غير عقلك، وخالية من رفيقٍ غير صوتك الذي يحثكِ على السير نحو المصير، وأن تشعلي النار على أعواد أناملكِ لكي تنير السبيل إلى أحلامك؛ فاستمعي إلى ما أوحي إليكِ مني يا صغيرتي:

_صدقيني لم ألُمكِ يومًا، فجريمةُ القلب أنه صدق ما تراهُ العين، وأنا شجرةٌ جذوري فُراقٌ وأوراقي مسافات، أحنُ للمواعيدِ والتجمُعات، وحين اللقاء أجدُني منزويٌ مع نفسي.

=ما يتجسد لي أنهم يضمون بعضهم وتضُمني يداي، كُنت أظنُ أنني نجحتُ حين وضعتُ للوردِ سُكرًا في الماء، لكنك ذبلت، مثلي تمامًا.

_لا بأس أيضًا؛ فعِند الإنهيار يقعُ الجُزء الأول دائِمًا، يقعُ العقل وتتآكلُ الذكريات، ويتهاوى الجسد، فأفقِدُ جُزءًا مني ويتناثرُ الآخر، كم هو سخيفًا الأمر!

= أتعلم؟

السُخرية هي أن تكُون دموعك على النافِذة تمامًا تنتظرُ وقُوعها لكنك تخافُ إن وقعت ألَّا تقِفَ مُجددًا، خوفُ داءِ الكسرِ المُزمِن إلى الأبد.

حاولتُ أن أكون طبيعية، برائِحةِ الربيع كما عهِدونِي، ابتسِمُ لِكُل شيء برحابةِ صدر ورحُبٍ كبير، لكِن ترآى لي الأسود المُحيطُ بِي يُعانِقُنِي بِحنُو كأنَهُ يخافُ فقدِي، رُبما إنهارَ كُل شيء، انهَرتُ أنا و كُل ما كُنتُ قديمًا.

_يبدُو أن صخيبهم جعلكِ تذبلين معي يا وردتِي، الفارقُ أنكِ لازلتِ يانعة بأطرافُك الميتةَ، وأنا ما زلتُ على قيد الحياة لكن مشاعرِي ماتت، أظنها شخصيةٌ جديدة تُصنع بداخلي كما قال هو عن نفسِه، رُباه!

كيف للألم والوحدة أن يكونُ كسكينةٍ تخترِقُ العظم وتُهشمُه ثم تقطن بداخلِه بعد أن مزقت الدواخل، وتقف بريئةً في مكانها تنتظر من ينقذها مِن جسدِ مضيفها.

=لن نكُن يومًا لنا، كُنا للأماكن، للسحاب، للغمرَّاتِ عند الحاجة، وللشاي في الصباح، ودمُوع الفرح، لكنا لم نكُن لنا.

_صحيحٌ أننا بلغنا النهاية دون الوصول للغاية، تعبنا من السير فتوقفنا عند أول محطةٍ لكنها كانت الأخيرة، أتعلمين ما الممتع في هذه الرحلة؟!

أنني التقيتكِ، تعرفت على ذاتي واقتربت منها أكثر، علمتُ نقاط ضعفك ومواضع قوتك، تعلمتُ أن التركيز على انتهاء الرحلة بأسرع وقت يفقدنا لذةَ الاستمتاع بالرحلة، أن الوقوف في المنعطفات الصغيرة والأخذ منها عِبرةً ممتع أكثر من الوقوف على القمة والصراخ بأننا قد فعلناها!

اليوم أنا متقبلٌ كوننا فاشلون يا عزيزتي، خسرنا المعركة لكننا كسبنا أنفسنا، ألم يقل فهد عامر:

" قبل أن تفكر في تضرير ذاتك توقف أولًا عن تدميرها بأفكارك السوداوية "

أنا قتلتها لكني لم أفقدها، جلّ ما أفخر به الآن أني نلتُ شرف المحاولة، وسطّرت حكايتنا في عوالم مجهولة، رُبما نلتقيها بعد أن نصعد إلى القمة التي لا تعلوها قمة.

=ما رأيك أن نتعاقد في بقعةٍ يسكُنها حُب التعلق بالذات، ربما نجلسُ على أقرب شاطئ في بحورِ الخيال، لك حرية الاختيار في كيف تكون الجلسة، وما نوع الموسيقى التي نود سماعها، إن شئت بدلنا لون الشاطئ أيضًا؛ فنحن على أرض الخيال، حيث كل شيءٍ ممكن، حينها حاول أن توقعنِي في الفَخ، تلاعَب بي بشباكِ الحُب وسأرفُض، سأرفضُ الإنكسار مرةٌ أخرى، وأفرِضُ على جزُئي المُتناثر مُضَاداة الضعف وقلةِ الحيلة.

ثم أنَّ للتواضُع درجات، ولأنِي أميلُ للُطف دائِمًا أعطيتُك فرصة، وبدأ العرض، تُزيل قناعًا تِلو الآخر، تُوجِدُ مئاتِ الألوان والأطياف المُبهِجة، للأسود، ثُم تُردِدُ جُملتَك المُعتادة "الأسود يليقُ بِك" وفي تِلك اللحظة المُعينة، تكحلة عينِي بالدُموع، وإلتفاف عيني بالهالات كأنمَّا تحتضِنُها كي لا تنتحِب وتتمردُ مياهُهَا عليها ولسببٍ واضِح أُحاول غض البَصرِ عنه؛ فإدراك هَوانِ النفس أصعَبُ مِن الإعترافِ بِه، أدركتُ أن الشوارِع لم تكُن سعيدة قط، فكُل الشُخوص التِي تمرُ عليها أقنِعة، وكُل الأمطار التِي تحتضِنُ الثَرى دمُوع، والشمسُ تحترِق و تتألم في كُل لحظة بيأس، والسماءُ لا تستطِيعُ مُعانقةَ القمَر إلَّا ليلًا، وكُل كذباتِ العالم البيضَاء كِذبة في نهاية المطَاف، و ليسَ كُل بشرٍ إنسان؛ نُخلقُ بشر، أمَّا الإنسان فتصنَعُه المشاعِر.

ثُم تأتي الخاتِمة بعد إنزال السِتار وتصفيق الجمهُور، صفير المعجبُون بالعرض، وصرخاتِ المُراهِقاتِ ناقِصات الأمان، بضعُ كلماتٍ سامة، وبعضُ المزحاتِ الجارِحة المُغلفة بالماضِي الأليم، ثُم ذكرنِي بهفواتِي الساذجة التِي أكرهُها، وتجاهلنِي بعد إتمام نقصك بكسرِي، الآن أصبحتَ كامِلًا فهنيئًا.

" استسلمنا وعاونتنا الأقدار على ذلك، لقت أحلامنا حتفها وتهاوت في قبورٍ عمقها أميالٌ من الخيال، هنا يا عزيزتي قد انتهى كُل شيء، كتبنا النهاية بأنفسنا، والآن حان الوقت لنكتب بدايةً خالية من غيرنا مُمتلئةٌ بنا"

هكذا انتهت قصته بعد أن توسد دفاتره وذهب لنومٍ عميق، وظللتُ أراقبه خشيةً من أن يكون قد استسلم للحياةٍ أيضًا، حتى أنحنى الليل مودعًا بساط السماء، وتلاشيتُ أحمل في داخلي وقعَّ كلماته، والآن عرفتن لما اسميتها أعظم قصةٍ في أرض الغرباء؟!

لأنها كانت كفاحًا مع الحياة ومع النفس، وأخرها كان الرضى يا رفيقاتي.

يقال أن الهموم كالغيوم، ما تراكمت إلا لتمطر، ولا تتأخر الأماني إلا لتكبر العطايا، فحتمًا ثمة منحة في جوف كل محنة، وستأتي بعد زحام البلاء أفراح

ألم يقل الله تعالى:"وبشر الصابرين "؟!

عند تِلك الهالة تبادلنا بريق الأمل بدلًا عن أطراف الحديث، تعاطينا ضحكات النجاح وتراتيل النبُّوغ التي تردد صداها في كل الأرجاء، في كل لحظة نلمعُ ونحلق فرحًا، ثم نهبط ونعبّق المكان نشوةً وانتشاء.

على ضِفاف وقدسية السّعي فقط يحقُ لك أن تحلم وتُخطط بعيدًا عن عبثية الوجود ومُسمى المُستحيل، أن تغوص حد الغرق؛ لتصطاد قِرشًا أو سمكة أو لا شيء، المهم أن تنظر للأنوار هناك؛ لتتناسى كل تلك الغصّات والعقبات، ثم تقذف فُتّات ما تبقى منها على الأمواج؛ لتحمله بعيدًا فلا مكان هُنا للضُعف والنقص، كل همسٍ كان يحمل في طيّاته الكثير من الأحاديث، وكل قصةٍ كان يتوارىٰ خلفها الكثير من العِبر.

عِند النهاية:

النهايات عادةً تعيسة، بائسة، ملعونة الحظ، إلا نهايات الركض خلف النجاح، لن تُحَف لك الطُرق بالورد، ولن يقف الجمهور ليشجعوك حتى تصِل، ستلدغك الأيام، ومِن جهة أخرى يصفعك القدر؛ لذلك طُرق النجاح خالية، لا يشوبها الازدحام، فالأهداف للعظماء، والأحلامُ للضُعفاء، ساعٍ يُحقق، وخاسِر يحلم.

بترانيم فريدة مِن نوعِها يُتَوِجُ الوصُول أصحابه، فيتسللُ الصوت كفرحة السلام لبلادٍ كانت تحت سطوة الحروب لعقودٍ من الزمان.

أما الأن:

دعونا نغفو في سُباتٍ عميق؛ لنعود مُجددًا أو نستمر في التجول بين أهلِ العزم، لنسافر من أرض الأحلام إلى ما تحقق منها؛ حيثُ كل شيءٍ أصبح مُباحٌ ومُتاح، نتباهى بإنجازات الواقع، ونفرح بنجاحات أبنائنا الحالمين، نُغرب في دهاليز الزمان المختلفة، إلى أشياءٍ غامضة لا يَنْأىٰ

ويَدْنو منها أحد، وحدنا فقط قادرين على فك طلاسمها وقراءة وفهم شفراتها، أن تكون لنا لغتنا الخاصة التي تُميزنا.

#على_قمة_النجاح

كانت الرحلة طويلة وشاقة للغاية، ولم يكن الأمرُ سهلًا كما تظن، حتى الطريقُ لم يكن سالكًا ومُعبدًا، وليست كل الطُرق تؤدي إلى النجاح، تساقط من كانو يدعون أنهم أصدقاء رويدًا رويدا، وبقيتُ أنا وبعضٌ مني نستند ونقوي بعضنا، تارةً نضعفُ ونسقط حتى نعانق ونقبل القاع، وتارةٌ أخرىٰ نقف في أعلى القمة متجاهلين أمر ذلك السقوط، لا نسيانُ الخذلان يقْصيني، ولا التذكُّرُ يدْنيني عن مواصلة الطريق.

لقد عبرنا إلى الضفة الثانية، رُغم الحُطام والعثرات التي لم تكن تلهمنا سوىٰ الثبات، ف فرحة الوصول وتحقيق النجاح كانت كفيلة على أن تُرمم أوجاع عُمرًا من الزمان، أنا فخورٌ بي؛ قد انقذتُ نفسي مِن ازدحامِ القاع.

#مبدعون_متميزون

#العنقود_النجمي_حيناذ

#الذكرى_الأولـــى